الاسم و اللقب : جميلة روباش

أستاذة بجامعة المسيلة –الجزائر–

البريد الإلكتروني : djamilaroubache@yahoo.fr

عنوان المداخلة: المتخيل في الرحلة الجزائرية الورثلاني نموذجا

المتخيل في الرحلات الحجازية

يقول الله تعالى: ((وأذن في النّاس بالحج يأتوك رجالا وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فج عميق ليشهدوا منافع لهم)). استنادا لهذه الآية العظيمة، تندفع قوافل الحجيج من بقاع العالم الإسلامي كافة، في أشهر معلومة من السنة الهجرية إلى أم القرى مكة المكرمة ليؤدوا الركن الخامس من أركان الدين الإسلامي.

وكانت أكثر قوافل الحج على العموم انتظاما وترتيبا التي تخرج من مصر والشام والعراق واليمن، وقد كان الحجاج في أكثر الأحيان يغدون إلى الأماكن المقدسة بالحجاز عن طريق مصر، خصوصا أولئك الّذين كانوا يأتون إليها من الأندلس والمغرب وإفريقيا برا وبحرا.

تعكس الرحلات الحجازية قدسية للمكان والزّمان باعتبار أنّها رحلة إلى مركز للعالم بحسب التصورات الجغرافية والدينية القديمة، إذ الإقليم الرابع هو وسط العالم، وهو الإقليم الّذي تقع فيه القدس ومكة، وتأسيسا على هذا كانت قبلة المسلمين الأولى القدس ثمّ صارت مكة وهذه التولية عن القبلة الأولى دافعت عنها آيات قرآنية وأحاديث نبوية، والقضاء المكي يضم أماكن مقدسة أخرى ألزمت الشريعة زيارتها حتّى يكتمل الحج ويصح.

كان العامل الديني من أبرز الأسباب التي دعت المغاربي إلى مغادرة مسقط رأسه للوقوف على أهم أمكنة انبعاث الدين الإسلامي مثل مكة والمدينة المنورة وبيت المقدس، ووصف ما تتضمنه من أماكن مقدسة ينظر إليها كلّ المسلمين أينما كانوا بعين الإجلال والقداسة، كالمسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى.

لم يحظ مكان مقدس بالبحث والوصف كما حظيت بذلك المدينة المنورة في كتب الرحلات، أو نصوص السفر على اختلاف أنماطها، وتفيض أحاسيس الرحالة المسلم حين وصوله، وتنطلق دفعة

واحدة دلالة على المدينة المنورة من سطوة في وجدانه لهذا المكان الطاهر، فتصبح عباراته الإيمانية نصه الرحلي، وتتبادل حواسه النفحات الروحانية المصنوعة من وهج المدينة الديني.

تجربة الحج هي تجربة للحياة والموت، فالإنسان جاء عن طريق رحلة، وتنتهي حياته برحلة إلى عالم الآخرة، ويتمنى الحاج انتهاء حياته في أقدس بقعة على الأرض، بيت الله، فيحاول تطهير نفسه من الذنوب والخطايا.

أما على مستوى كتابة النّص الرحلي فيجب التمييز بين البعد والقرب إلى بيت الله وما يحوم حول الحاج من مخاطر ومغامرات تسجلها العدد من الرحالين بسرود مختلفة، فخطاب الرحلة الحجازية الحجية يصبح وسيلة للتطهير والتسامي.

اتساع البيت الحرام، مهبط الرسالة والوحي، مثوى النبي (ص) والصحابة والتابعين، يمتد إشعاع هذا الفضاء نفسه إلى الفضاء الإسلامي عامة، وكل العناصر الطبيعية أو غير الطبيعية، بمجرد ملامستها لهذا الفضاء، تصبح ذات وظيفة مغايرة للوظائف الشائعة، من موت الّذي يصبح استشهادا أو ضياعا لمتاع أنّه تطهير تظهر ورحمة من الله.

وبهذا يترك الرحالة- الحاج، العنان لنفسه عند وصوله إلى البيت العتيق والوقوف بالمسجد النبوي ومواقف الصحابة والتابعين، وشربه من باب زمزم فتنفجر الذات بحالات من الشوق، وهي لحظات مميزة من الاعتراف سحر التجربة وسيطرتها على الذات، وبهذا يصبح المكان حاملا، لكل القيم الدالة على الكلية والشمول التي تسند له كلّ الرواحل.

إنّ قيام الرحالة بالمناسك إنّها الهدف منه تعليمي من خلال التكرار، إلا أنّها هذه الممارسة تتجدد بتجدد الممارسين، وبالتالي يتجدد البعد الرمزي الخاص بكل حاج.

وأبدى الرحالة المغاربي في نصوص رحلاتهم، اهتماما كبيرا بالأماكن المقدسة، وتناولوها بشكل ينم عن روح دينية متعطشة تبحث عما يشعل فيها جذوة الحس الإيماني، حيث بدأوا حديثهم عنها بالاستهلال بذكر فضائل تلك الأماكن، ثمّ الولوج في الوصف الجغرافي وإبراز ما له من دلالات وارتباطات عامة، ومن هذه المعالم الدينية المسجد الحرام في مكة المكرمة الّذي أخذ حيزا كبيرا من الوصف في كتابات الرحالة، وذلك لما له من مكانة خاصة ترتقي إلى مرتبة القداسة في نفوس المسلمين، فقد وصفه بإسهاب الورثلاني إذ يقول: (فلما استقر بنا القرار في مدينة الرسول وشاهدنا تلك المشاهد النبوية الفردانية الصمدانية القدسية الروحانية المحمدية الأحمدية ظهرت لنا معالم الأنور،

ونتائج النبي المختار، وثمرى الود وكشف الأستار، وحضرت القهار، فانعكس في قلوبنا روحانيته صلى الله عليه وسلم على الأجباح، فناط متكنا منا يعلم الأرواح....").[1]

ويصف الورثلاني الأثر النفسي الّذي تركته فيه المدينة وصفا يشي بما لهذه البقاع المقدسة من أثر نفسي عميق في النفوس.

لقد أثار المكان الديني الإسلامي (البقاع المقدسة) لدى الرحالة مشاعر الشوق والتأمل الروحاني لما يحمله من قدسية في نفسه، ففي هذا النوع من الأمكنة تسود الأجواء العاطفية الدينية، أما غيره من الأمكنة فوصفه تحكمه طبيعة العلاقة والتعامل الحاصل بين الرحالة وأهل المكان وما يحملون من طباع وسمات، وقد يكون المكان مسرحا لأحداث التاريخ وتقلباته؛ فيكون الحديث عنه من وجهة تاريخية.

لهذا نجد أن المكان الديني هو من أكثر الأمكنة التي نالت نصيبا وافرا من التفصيل الدقيق أينما وردت، ففي أوصاف ابن بطوطة صورة دقيقة للمدينة المنورة تنقل تفصيلات مساجدها ومشاهدها المكرمة وبيوتها وجبالها، يقول في وصف مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وروضته المقدسة: "ودخلنا الحرم الشريف، وانتهينا إلى المسجد الكريم، فوقفنا بباب السلام مسلمين، وصلينا بالروضة الكريمة... المسجد المعظم مستظل- تحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل، ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت، والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على سكانها في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم، وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله، وهي موزرة بالرخام البديع النحت، الرائق النعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان، وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم".[2]

نجد ابن قنفد أسير الفقيه الذي يؤمن أن له كرامة بتجلياتها لهذا فهو يلتقي للعجاب الذي في ذاته.

يكتفي بسرد عجائب رآها أو استدعتها مشاهداته، فهو رحالة يقدس الأمكنة بآثارها أو قرائن منها، وأيضا الأولياء من المجاذيب والمشايخ وكراماتهم إلى مثلث العجائب المقترن بعناصر من قبيل السحر الاختفاء، والغيب وتدخلاته، وتكليم الجماد والحيوان.

---

[1] - الورثلاني، الرحلة، م02، ص 576-577.

[2] ابن بطوطة، تحفة النظار، مج1، ص349.

ويحدث ابن قنفذ عن الموسم الذي حضره بدكالة وكثر قاصد به من الفضلاء[1]، حضور مثل هذه المواسم إنما يدل على تغلغل الجانب الروحي ضمن طوائف وطرق المتصوفة في المجتمع ودلالة على رسوخ اعتقادهم بنفع الشيخ وتنزل بركاته.

وسنركز في هذا المقام على حرصه على زيارة الأضرحة والمقامات والزوايا، ودلالة اهتمامه بأخبار المتصوفة واتخاذ مواقف من معارك فكرية جرت في القرون السالفة، والسعي للأخذ عن شيوخ متصوفة وإيراد كرامات الأولياء وخوارق المتصوفة ومعتقدات شعبية أسطورية، ولا عجب في كلّ ذلك إذا استحضرنا أنّه متشبع بثقافة دينية عميقة ونشأ في بيئة متشبعة بتعظيم الأولياء كما يجب في هذا المقام استحضار العلاقة الرمزية بين التصوف ومكوناته وبين الترحال في الآفاق والتغرب في الأرض.

المتخيل في رحلة الورثلاني:

تعتبر رحلة الشيخ الحسن الورثلاني الموسومة بـ"بنزهة الأنظار في فضل علم بالتاريخ والأخبار" أحد الرحلات البارزة في القرن الثامن عشر ميلادي، الثاني عشر هجري بالجزائر، تحت حكم العثمانيين.

وانطلقت رحلة الورثلاني من موطنه "الجبل المثقوب" (أرزو إيفلان) بمنطقة بني ورتلان، حيث.....

قام الورثلاني برحلة داخلية في الجزائر قبل التوجه إلى الحج، فزار الأولياء والصالحين، الأحياء منهم والميتين، وكان ينشد شيوخ الطرق الصوفية والزوايا والأئمة البارزين في التصوف، غير مهتم بالفقهاء ولا بعلماء الحكام، كما كان يدرس ظاهرة التفكك الاجتماعي وتدهور الأخلاق العامة، وعلاقة السلطة بالرعية، وبنى هذه الرحلة الداخلية على الأحكام الغريبة، والغرائب العجيبة، والأحكام الشرعية، وتحدث عن المجتمع النسائي، وعن ركب الحج الجزائري الّذي كان يظم عائلات بأكملها، ومنها عائلته قبل أن يقطع حوالي ستة آلاف كلم نحو الحجاز عابرا لمحطات رئيسية هي: بسكرة (الجزائر)، الجديد (تونس)، وطرابلس (ليبيا)، وبولاق (مصر).

وأثناء ذلك تعرف الورثلاني إلى ما كان يتعرض له الحجاج من أخطار اللصوص والحرابة، وسجل ما شاهده من ظلم وحياة طبقية ممقوتة، وأخبر عن المحمل المصري الّذي اعتاد على حمل الكسوة إلى الكعبة المشرفة، وكان الورثلاني خلال ذلك يرصع كتاباته بعروض من الكرامات والغرائب والكشف الصوفي، وأفكار عن الفلسفة وعلم الكلام والفقه، كما سجل رأيه في الأشخاص الّذين

---

[1] ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، ص 62.

تعرف عليهم من حكام وعلماء ورجال تصوف، أما مناسك الحج فهي أعمال تعبدية قام بها الشيخ كما يقوم بها كلّ مسلم متدين ومحافظ، ناقلا وصف تطبيقها حرفيا أحيانا ممن سبقوه من الرحالة.

ودامت الرحلة حوالي ستة أشهر في الذهاب وستة في العودة، ويبدو أنّه أكمل كتابة الرحلة بعد سنين من عودته حيث أرادها وثيقة إخبارية للخلف عن تجربة موسم الرحلة إلى الحج بما تحمله من معاني إيمانية عظيمة وتجربة روحية عميقة إضافة إلى ما يتخلل هذه الهجرة الظرفية في سبيل الله من عجائب ومخاطر ذكرها بالتفاصيل في نص رحلته.

وتدخل رحلة الورثلاني في باب الرحلات الحجازية، فهي تترجم أحاسيسه الإيمانية للتقرب إلى الله سبحانه وملامسة آثار نبيه الكريم- صلى الله عليه وسلم- بالأراضي المقدسة إضافة إلى أن الرحلة أرخت لحالة البلاد والعباد في تلك الفترة الهامة والمنطقة الإسلامية.

أما الشيخ الحسين الورثلاني فيعد من أهم علماء منطقة الجزائر في تلك الفترة مثلما ورد في وصف الحفناوي في مؤلفه "تعريف الخلف برجال السلف"، فقد جمع علوم زمانه وعرف الفقهاء والعلماء على امتداد الرقعة الإسلامية، وجاء في رحلته أنّه لم يترك عالما في وطنه، سواء أكان حيا أو ميتا، إلا وزاره[1]، ويتكرر نفس المشهد في مسار رحلته إلى الحج، فلا يمر على منطقة دون زيارة علمائها وذكر أنقابهم ومآثرهم بتفصيل شديد.

ويعتبر الشيخ الورثلاني فقيها مالكيا نابغا بالإضافة إلى إلمامه الواسع بعلم الكلام والفلسفة والتاريخ.

وينتمي الشيخ الرحالة حسبما أوضح الدكتور أبو القاسم سعد الله إلى الطريقة الشاذلية، وهي إحدى الطرق المرتبطة بمؤسسة "الزوايا" والتي كانت أهم المؤسسات التعليمية الدينية بالمنطقة تفي عهد السلطنة العثمانية، ولم يتأتى على ذكر هذه الطريقة كثير في الرحلة مما يفهم أنّها تخص بعض الجوانب الخلقية في احترام أولياء الله الصالحين نابذا تلك البدع التي صاحبت هذه الطرق.

فنهج الورثلاني كان نقليا وعقليا بل أنّه يغلب العقل على النقل عند التعارض الظاهر ويترك أمر تأويل هذا التعارض إلى الله، وكثيرا ما يدخل في جدال راقي وواسع مع بعض تقديمات علم الكلام والفلسفة والمكاشفات الصوفية مما يجعله عالما وسطيا.

يصف الورثلاني الرحلة إذ يقول: "أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنما تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة،

---

[1] ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف.

والحكايات المستحسنة، والغرائب العجيبة، وبعض الأحكام الشرعية..." [1]، وقال عنه المؤرخ والمحقق الشيخ الحفناوي أنّه: "الإمام العالم، العامل العلامة، الكامل الأستاذ الهمام، شيخ مشايخ الأعلام، الورع الزاهد، الصالح العابد المتبع لأثر الرسول، الجامع بين المعقول والمنقول بحر الحقائق وكنز الدقائق...". [2]

الشوق إلى بيت الله الحرام:

بدأ الإعداد للرحلة برحلة داخلية قصد زيارة رجالات العلم والفقهاء، إضافة إلى قبور أولياء الله الصالحين في بجاية وتدلس[3] غربا وقسنطينة شرقا[4]، وتكون قادته تلك الرحلة إلى منطقة الأوراس، وذلك من أجل الحصول على بركة هذه الشّخصيات والاستئناس بدعمهم ودعواتهم يقول الرحالة: "ولعلّ الله يذكرهم يزيل الحجاب عنا ويرزقنا الوهب الرباني لي ولذريتي ولمن تعلق بي وأن يحفظني من العوائق من الوصول إلى الله وأن يجمع شملنا ويرزقنا ما رزق به أخل وده...".

وكان الإعداد للرحلة معنويا أكثر منه ماديا، إذ يضيف الورثلاني بدقة الجو الروحي الّذي ينبغي أن يتحلى به الحاج من عقد السنة وابتغاء مرضاة الله في ذلك والابتعاد عن الرياء وإتقان آداب السفر وغيرها، ويصف ذلك بقوله: "وبالجملة فينبغي أن ينوي بسفره رضى الله تعالى وأن يستغل نفسه بالتوجه إلى الله وإلى بيته ومواجهة نبيه- صلى الله عليه وسلم- ... وأصحابه... وأنبياء الله ورسله... وأن ينتظر شفاعتهم بأنّ يلتقي بهم، بحيث ينوي الانتقال من أوصافه المذمومة إلى الأوصاف المحمودة والسفر من الخلق إلى الخلق ومن طبائعه الردية إلى السجايا السنية... وينوي أن يكون من وفد الله تعالى وضيوفه... وينوي إغاثة المضطر ما أمكنه بماله أو جاهه وأن يعلم الجاهل إن كان من أهل العلم أو يسأل العالم إن كان جاهلا، وأن ينوي الزيارة الأحباب إليه الأحياء والأموات في كلّ وطن... وأن يعتبر ويوحد الله فيما يراه من عجائب المخلوقات... الخ". [5]

يذكر الورثلاني العديد من الطرائف والعجائب التي صادفته في الرحلة، ويذكر ذلك أن التقى بمنطقة أولاد يعقوب (على الحدود مع تونس) باحد الفارين من سلطة باي قسنطينة لأمور دينية

---

(1) الرحلة الورثلانية، ص 05

(2) الرحلة الورثلانية، ص06.

(3) رحلة الورتلاني، م1، ص44.

(4) رحلة الورتلاني، م1، ص44.

(5) رحلة الورتلاني، م1، ص46.

ومنها أنّه تزوج اثنتي عشر امرأة، "وفي ذلك اليوم مررنا على ولد الشيخ بوعزيز الخناشي وهو الشيخ إبراهيم قد فر من باي قسنطينة لما تبعه بعساكره يريد الانتقام منه لأمر ديني وهو استطالته على المسلمين وتمرده على الأحكام الشرعية وأنه كان يتزوج أكثر من أربع وقد سمع أنّه بلغ اثنتي عشر امرأة عدو نفسه فلما وصلناه خاف منهم الركب فخرج إلينا مع بعض أصحابه فأتى إلينا ونحن السابقون فسلم علينا وطلبنا في الدعاء فدعونا له بالهداية والرجوع إلى بلده وأنه أمرنا بالنزول عنده فامتنعنا".[1]

وسرد أيضا في منطقة قابس بتونس أن خارج حمام طبيعي يوجد نهر "يجتمع فيه الرجال والنساء من غير ستر... فما رأيتهم اقشعر جلدي وتحركت فرائصي فملأت حجري بالأحجار وصرت أضرب كلّ من هناك... فقالوا ما هذا الرجل وظنوا أني خرجت من عقلي ففر الكل ولم يبق أحد... ثمّ مر علي شخص فقال لي رحمك الله لو كنت معنا دائما لزالت هذه الأمور العظيمة إذ يحرم ذلك إجماعا".[2]

ويذكر من العجائب الروحانية أنّه ومجموعة من أصحابه الفضلاء تخلف عن الركب أثناء العودة بمنطقة الحجاز "فأصابنا عطش شديد، ونحن كذلك إلى أن أشرفنا على النيط فزاد بنا شدة الحر وقوة العطش وإذا بواحد من العرب لقينا بقربة من الماء فأسقى جميعنا ظنا منا أن هذا الشّخص لم يرمنا إلا الفلوس فشربنا الماء أحلى من العسل وأبرد من الثلج، فلا نعلم أنّه من ماء المطر أو من العيون التي في الجبال، فلما أتى عن آخرنا ارتقبنا منه أن يتكلم ويسأل الدراهم كما هي عادة عرب الحجاز... هب الريح فلم يطلب من أحد دعاء ولا سأل شيئا منه بل رفع قربته ولم يلتفت إلى أحد منا، فعجب جميعنا منه ووقع في قلوبنا أن هذا الرجل من أهل الله وأنّه من عباد الله الصالحة إذ يعلوه جلال وهيبة ونور، فندم الكل من حيث أنّهم لم يسألوا منه الدعاء".[3]

ويذكر من الغرائب أيضا ما لاحظه عن سكان الجبل الأخضر بمنطقة طرابلس من "ركوبهم على البقر وحمل الحوائج عليها وأناختها عند الركوب والنزول مثل الإبل من غير مشقة..." وكذلك "الغنم لا يسوقونها إنّما يسير صاحبها أمامها قلت أو كثرت فإن أمهل تفي السير أمهلت وإذا أسرع أسرعت... ويأتي أحدهم بالكبش إلى السوق وهو يتبعه كالكلب المعلم".[4]

---

[1] رحلة الورتلاني، ص161.

[2] المصدر نفسه، ص161.

[3] المصدر نفسه، ص226.

[4] المصدر نفسه، ص271.

يروي الورثلاني عددا من المكاشفات الصوفية التي كانت على ما يبدو سائدة في أوساط العامة وبعض رجالات الصوفية آنذاك، وعادة ما تأتي هذه الأخيرة في شكل أقوال منسوبة إلى "الأولياء" و"الصالحين" ويقارب الورثلاني هذه الأخيرة بحاجتها بالدليل النقلي أحيانا والعقلي أحيانا أخرى فيفندها أحيانا ويتركها بدون حكم أحيانا أخرى.

وما يذكره من هذه المكاشفات بدون تعليق ما مفاده، وإشارة إلى أحد الأولياء ببجاية الملقب بالشيخ سيدي أحمد بن عبد العظيم، أنّه "قد سمعت ممن سمع سيدي إبراهيم الحاج البجائي أنّه سمع الحيتان في البحر تقول سبحان الله أحمد بن عبد العظيم ولي الله"[1]، ويتكرر شيء مشابه في الحديث مثلا عن الشيخ إبراهيم- من منطقة بجاية- ويقول: "وأني سمعت ممن يوثق يخبره أن السيد أبا القاسم الحاج صاحب فراية في بجاية أنّه رأى السيد إبراهيم في السماء الرابعة يجذب الشمس مع الملائكة..."[2]، ويذكر أيضا العديد من كرامات الشيخ الملقب بسيدي يحي من منطقة "ثمقرا" أنّه "لما بنى مسجده المعلوم اختلفوا في القبلة، فلما اختلفوا فيها قال الشيخ يحي لجبل فوق قريته انخفض فتبينت له الكعبة ورآها كلّ من كان هناك وهذا والله أعلم".[3]

ولعلّ موقف الورثلاني من مثل هذه المكاشفات يتضح أكثر في معرض مروره بأحد الأولياء سيدي محمد بن علي بمنطقة عقبة، إذ يروى أن هذا الأخير من بعض الحجاج ممن زاره "أنّه قال لهم أن النبي- صلى الله عليه وسلم- (أي في المنام) أن النار لا تمس كلّ من رآك وزعموا أنّها قال ومن رأى من رآك...".[4]

ويقول الورثلاني أن الله أعلم بحقيقة ذلك، لكنّه يضيف أن هذا الكلام- إن صح- "يحتاج إلى تأويل وبعد حمله على ظاهره، وأن المراد مجرد الرؤية البصرية، فإنّ القواعد تأبى بقاءه على عمومه"[5] ويضيف في سياق مشابه بعد ذلك "ولو صح حمل الكلام المتقدم على ظاهره وعمومه لكان أولى بذلك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم".

وعموما، يرى الورثلاني في العناية بكلام الأولياء، إلا ما يبدو أنّه لا يستقيم فيهم اللجوء في هذه الحالة إلى التأويل القائم على الحجة والشرع، يقول في ذلك: "إلا أن كلام أولياء الله لا ينبغي أن

---

(1) الرحلة الورتلانية، ص23.

(2) المصدر نفسه، ص23.

(3) المصدر نفسه، ص20.

(4) المصدر نفسه، ص118- 119.

(5) المصدر نفسه، ص119.

يرمى به جزافا فليحرص المرء جهده على لقائهم ورؤيتهم والتبرك بهم فعسى أن يصادف نفحة من نفحات الحق فيسعد بها دنيا وأخرى... ومع ذلك فلا يركن إلى ظواهره ما يجري من ألسنتهم كلّ الركون... فإنّ لكلامهم وجوه واحتمالات".[1]

ةيتلخص موقفه من مثل هذه المكاشفات قوله: "وما أطنبت في هذا إلا أني رأيت كثيرا من الجهلة يغتر بأمثال هذا ويحمله على ظاهره إلا فإنا والحمد لله ممن يعتقد تنزيه ساحة الأئمة الصوفية من الكذب والافتراء ويثق بأقوالهم ويصدق كراماتهم ويحمل ما أشكل على أحسن محامله ولا أطعن فيه بوجه وأسلم لهم قيما لم يتبين لي وجهه والمنة في ذلك الله وحده".[2]

يعتبر موسم الحج والرحلة إلى البيت الحرام فرصة الالتقاء والتعرف على العلماء وأحوال المسلمين في شتى بقاع العالم.

ويسرد الورثلاني الكثير من مظاهر ظلم الولاة في المناطق التي سلكتها الرحلة، ويكون هذا الظلم مجسدا في النزاعات الداخلية أحيانا أو سياسات ولاة الأقاليم في المدن الرئيسية أو تدخل الأتراك في محاولة إعادة استتباب الأمن في بعض المناطق وما ينتج عن ذلك من خراب ودمار.

ويذكر الورثلاني أنّه صادف وجوده بتوزر، تونس، في رحلة سابقة مجيء أمير تونس رمضان باي، فكان هذا الأخير يأتي "لقبض الخراج الموظف على البلد كما هي سنتهم... قطعها الله من سنة وأخلى منها جميع أراضي الإسلام بلا منحة وملأها بالعدل المستقيم والدين القويم"[3]، ويضيف على نفس البلدة وغيرها.

وقد كثر جور الأتراك بهذه البلاد، وشاع بها الظلم والفساد، أخبر في معظمهم أنّهم كانوا يعطون ستة نواصر على كلة نخلة وأربعة على كلّ زيتونة، والناصري اسم لسبكة عندهم معروفة اثنان وخمسون في كلّ ريال لكل عام، وأخبرني بعض الشرطيين في الحجة قبل هذه أن خراج الجديد من نقطة إلى قابس خمسمائة ألف ريال لكل عام وخراج جربة وحدها ستون ألفا ومائتي صبايمي (ربما الفارس) من البر والأرز والسمن والنحل والزيت واللحم، فالله تعالى يقطع جور الجائرين ولا يصلح عمل المفسدين".[4]

---

[1] الرحلة الورتلانية، ص119.

[2] المصدر نفسه، ص120.

[3] المصدر نفسه، ص156.

[4] المصدر نفسه، ص157.

سافر الورثلاني في رحلته ومعه زوجته وزوجة ابنه وعدد من أصحابه بالمنطقة وغيرها، وقد ورد نقده قطع الميراث ولكن دون تفاصيل، حيث شبر إلى بعض العادات التي سادت- وما تزال- عند بعض العائلات البربرية التي تمتنع أو لا تعترف بحق المرأة في الميراث بفعل أن ذلك في نظرهم يشتت ثروة الأسرة خاصة في مجال ملكية الأرض.

وكان حديث الورثلاني على المرأة انتقائيا ويخص نقد حال المرأة "المسيرحية" والاختلاط غير المشروع بين الرجال والنساء الغرباء، وذلك في الكثير من محطات الرحلة ذهابا وإيابا، وقد أثر انتماء الورثلاني إلى بيئة محافظة على نظرته للمجتمعات التي صادفها أو عايشها في الرحلة حيث وصف تلك المظاهر بوصفها تعبير عن الجهل والبعد عن الدين.

ويصف نساء منطقة زمورة، التي على مسيرة أقل من يوم من موطنه الأصلي، بأنهن "بدايات مكشوفات، هداهم الله لحجبهن لأنّه من أعظم الآفات".[1]

ويزداد غضبه على بعض أفراد الركب الجزائري ولاسيما أهل عامر بعد خروجهم من المدينة المشرفة في طريق العودة إذ يذكر: "وقد أصابتني منهم عداوة عظيمة من أجل أني آمرهم بالسنة والقيام بالأحكام الشرعية لاسيما السير سيري الشيخ والنزول بنزوله وستر نسائهم لأنهن يذهبن مكشوفات العورات فيبدين زينتهن لكل النّاس بل يتزين لأجل ذلك ليرعن من فتن بهن، فأردت إقامة الحد عليهن وعلى أزواجهن فصارت لي فتنة عظيمة..."، ويضيف: "ثمّ تطاير البعض وتشاءم البعض الآخر وتاب من بقي منهم".[2]

ويستند موقف الورثلاني من مسألة الاختلاط إلى الأحاديث النبوية التي ذكرها وإلى مبدأ سد الذرائع في مجتمع يعيش التفكك الاجتماعي، ويكون ذلك استدراجا "حتّى يغلبه الشيطان فيقع في هواه الضلال، وربما سقط من عين الله إلا أن يتداركه الله من فضله...".[3]

---

[1] الرحلة الورتلانية، ص109.

[2] المصدر نفسه، ص622.

[3] المصدر نفسه، ص238.